نوحٌ

عليه السلام

سنطوى الآن الزمن فى وثبة هائلة لا ندرى مداها فنصل إلى نوح عليه السلام..

وإذا تساءل متسائل عن الزمن بين آدم ونوح عليهما السلام، فإننا نقول فى يسر: إن جميع ما يقال فى ذلك إنما هو ضرب من التخمين، وأن الآثار التى رويت فى ذلك يمكن تأويلها على أنحاء شتى فتكون ألفًا، وتكون آلافًا من السنين ولا يقين فى الموضوع.

لقد أهبط الله آدم، وهو على عقيدة سليمة من عالم الألوهية وعالم الجنة وعالم الملائكة، وأهبطه مزودًا بالمبادئ الأخلاقية الصالحة، وبث آدم ذلك فى أبنائه، واستجاب له من هداه الله وشذعنه كل من أواه الشيطان؟ وأخذ هؤلاء المنحرفون يزيدون شيئًا فشيئًا على مر الزمن، وعلى توالى العصور حتى شاع الانحراف فى العقيدة نفسها، فعبد الناس الأصنام، وانغمسوا فى الضلالة والكفر.

كيف بدأ الانحراف فى العقيدة: وكيف دخل الشرك على التوحيد؟

لقد كان آدم يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا فكيف انحرف بنوه؟

إن التفسير القديم والحديث، تفسير أسلافنا، وتفسير بعض علماء النفس الحديثين فيما يتعلق بهذه الظاهرة على اختلاف العصور والبيئات، هو أنه من الطبيعى أن ينشأ من آن لآخر فى بيئة من البيئات شخص صالح يحبه الناس لصلاحه وتقواه، ويحبونه للخلق الكريم، من بذل وعون وتضحية بالنفس والمال فى سبيل إسعاد الآخرين ويحبونه لما يشيع فيهم من جو الثقة والطمأنينة والأمن الأخلاقى الذى يفتقدونه فلا يكادون يجدونه فيكون له أتباع يقتدون به، ويسيرون على خطاه..

وحينما يموت يعكفون على قبره فى أوقات معينة، يستعيدون ذكراه، ويمجدون آثاره، ويسترجعون أقواله، ويحاولون أن يكون لديهم أثر من آثاره.

ويطغى عليهم الشوق فيصورونه، ويجعلونه فى منازلهم ومنتدياتهم وكلما مر الزمن أضافوا إلى مآثره مآثر من خيالهم، وإلى مفاخره مفاخر من ابتداعهم تكريمًا ، وزيادة قداسة.

حتى إذا بلغ التقديس منتهاه، بتوالى الزمن، عبد هذا الذى كان فى ابتداء أمره داعية إلى الله، وإلى التوحيد الخالص.

والإنسانية إذن بدأت بالتوحيد، ثم انتهت شيئًا فشيئًا إلى الشرك

والتعدد، وهذه النظرية على هذا الوضع تقرها الأديان الإلٰهية الكبرى كلها ويقرها كثير من الباحثين فى علم الاجتماع، وهى تقلب نظرية «أوغسط كونت» رأسًا على عقب، فقد كان «أوغسط كونت» يرى أن الإنسانية بدأت بالتعدد والشرك، ثم كان التوحيد خاتمة المطاف فيها.

وهذه النظرية «لأغسط كونت» لم تقف أمام الأبحاث الحديثة فانهارت كما انهار غيرها من نظريات هذا المفكر الذى كان يحتل يومًا مكان الصدارة بين المفكرين ، والذى أصبحت تدرس آراؤه الآن على أنها أثر تاريخى فحسب..

ومهما يكن من شىء فإنه حينما انحرفت الإنسانية فى عقيدتها شاءت رحمة الله أن يرسل نوحًا عليه السلام مبشرًا بالحق فى مجال العقيدة، وبالخير فى مجال الأخلاق، وبالعدالة فى مجال التشريع.

* * *

تضعنا النصوص الصحيحة والأخبار أمام نوح عليه السلام، وهو رجل ناضج ، مكتمل، أرسله الله لهداية قومه.

أما طفولته وشبابه وكل ما كان قبل الرسالة فليس لنا به علم.

ولكن الله سبحانه وتعالى له سنن خاصة بمن بعثهم أنبياء ورسلاً، وذلك أن الله سبحانه يختارهم من ناحية النسب من أشرف الأسر.

ولقد سأل هرقل أباسفيان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً :

- كيف هو فيكم؟

فرد أبو سفيان قائلاً: هو فينا ذو حسب..

فقال هرقل: وكذلك الرسل تبعث فى أحساب قومها..

ويعلل ابن خلدون سنة الله فى بعث الرسل فى أحساب قومهم، بأن ذلك إنما هو لأجل أن يكون للرسول أسرة ذات شوكة ومنعة تحميه من أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه ويتم مراد الله من إكمال دينه وملته.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى حديث صحيح:

«ما بعث الله نبيا الا فى منعة من قومه».

من هذه السنة الإلهية نوقن - وان لم تكن لدينا نصوص صريحة - أن نوحًا كان من أسرة كريمة.. هذا من ناحية الأسرة.

أما من ناحية الإعداد التربوى فإن الله سبحانه يصطنعهم لنفسه: يقول الله تعالى لسيدنا موسى:

﴿واصطنعتك لنفسى..﴾.

ويصنعهم على عينه:

﴿ولتصنع على عينى﴾.

أما سيدنا يحيى فإنه كان تقيًا، وبرًا بوالديه ولم يكن جبارًا عصيًا. وسيدنا عيسى جعله الله مباركًا أينما كان.

ورسولنا صلوات الله وسلامه عليه يقول له الله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

من هذا وغيره نؤكد أيضًا أن نوحًا عليه السلام لم يكن بدعًا من الرسل وأنه كان على خلق كريم.

يقول ابن خلدون عن الأنبياء والرسل عامة:

ومن علاماتهم أنه يوجد لهم قبل الوحى خلق الخير والزكاة، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، وهذا هو معنى العصمة، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها، وكأنها منافية لفطرته.

كان نوح على خلق كريم ما فى ذلك من شك، فلما انتهى إعداد الله له إلى غايته فاجأه الوحى، وتلك أيضًا سنة الله فى أنبيائه: فإنه حينما تصبح نفوسهم - بتربية الله وعنايته - أهلا للتلقى عنه يفاجئها الوحى مثلاً وهى سائرة فى الوادى المقدس وفى البقعة المباركة، كما حدث لسيدنا موسى، بينما هو سائر مع أهله رأى نارًا فقال لأهله امكثوا هنا، وذهب نحو الضوء فإذا به يسمع النداء الإلهى:

﴿إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى﴾. (طه آية: ٢٤).

أو يفاجئ الوحى النبى وهو فى الغار فيأتى الملك آمرا:

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾.

وفاجأ الوحى نوحًا عليه السلام، على نحو من هذه الأنحاء.

لقد فاجأه بالأمر: ﴿**أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم**﴾.

بماذا ينذرهم؟.

بعث الله سيدنا نوحًا حينما عم الفساد ليبشر بالحق والخير والعدل.

وبدأ سيدنا نوح بالعقيدة:

﴿**يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**﴾. (الأعراف آية ٥٩).

وهذا الذى قاله سيدنا نوح لقومه هو التبشير بالتوحيد، والتوحيد هو جوهر الرسالات السماوية جميعًا، والله سبحانه يؤكد لسيدنا محمد خاتم النبيين ذلك قائلاً:

﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾. (الأنبياء آية: ٢٥).

والتوحيد هو ما نعبر عنه فى الإسلام بأشهد أن لا إله إلا الله.. وقد جعله العالم الكبير أبو الريحان البيرونى: العلامة الأصيلة والطابع الحقيقى للدين الإسلامى، ولكنه فى الواقع هو جوهر كل دين سماوى صادق.

والمعنى الحقيقى للتوحيد هو الاعتقاد اليقينى أن كل ما فى الكون من خلق ورزق، وعطاء ومنع، وحياة وموت، وغنى وفقر وقوة وضعف، وعز

وذل، مرده إلى الله سبحانه.

وإذا آمن الإنسان بالتوحيد لم ينظر إلى غير الله فيكون خوفه منه، ورجاؤه إليه، وثقته به، واتكاله عليه، وإذا اعتقد التوحيد رأى أن كل ما سوى الله مسخر لله. وإذا اعتقد التوحيد تحرر من ذل العبودية لمخلوق لأن كل مخلوق مسخر لله ، إن الكون كله فى قبضة الله، إنه فى قبضة الله بالعلم والقدرة، والإرادة والحكمة والتدبير..

وتتكاتف آيات الله وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوة الإنسانية إلى التوحيد حتى تتحرر من رق العبودية..

يقول ربيعة بن عباد: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، بصر عينى بسوق ذى المجاز يقول:

يأيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا..

ويدخل فجاجها والناس متقصفون عليه (مجتمعون حوله) فما رأيت أحدًا يقول شيئا، وهو لا يسكت.

يقول: يأيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا..

أما النموذج الجميل الذى يسيل رقة وعذوبة فى الدعوة إلى التوحيد أى إلى الالتجاء إلى الله فى كل أمر فإنه الحديث القدسى الذى كان يرويه أبو مسلم الخولانى فلا يرويه على الكيفية التى يروى بها الأحاديث

الأخرى، وإنما يرويه وهو جاث على ركبتيه تقديسًا للحديث، واحترامًا له، وهو الآتى:

«ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرمًا فلاتظالموا..

يا عبادى كلكم ضال إلا من هدينه فاستهدونى أهدكم..

يا عبادى، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم..

يا عبادى ، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم..

يا عبادى، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا.. فاستغفرونى أغفر لكم..

يا عبادى، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى.

يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد فى ملكى شيئًا.

يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجناكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئًا.

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد

خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

* * *

بشر سيدنا نوح بالتوحيد، وبشر بالتوحيد جميع الرسل. وإذا فهم التوحيد على حقيقته واتخذته الإنسانية شعارًا لها يكون علاجًا لكثير من ألوان الضعف فى المجتمعات.

والإنسانية فى مختلف أزمنتها وأمكنتها تخاف الموت وتخشاه، هذا يقودها إلى الاستعباد للأقوياء، والذلة أمام الطغاة.

ولكن هذا الوضع لا يتمشى قط مع عقيدة التوحيد، فإن مالك الملك، إنما هو وحده الذى يملك الموت والحياة.

إنه يملك إماتة الطغاة أو تركهم لحكمة يعلمها سبحانه، وهو الذى قدر الآجال وحددها، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

والحرص على الحياة، أو الجبن ليس من أسباب إطالة الأجل، والشجاعة والإقدام ليسا من أسباب تقصير الأجل، وقد بين الله ذلك فى كتابه الكريم الذى يعبر عن جميع الرسالات السابقة إبانة تامة، وكما أنه لكل أجل كتاب فإنه لكل أمة أجل.

أما هؤلاء الذين قالوا:

﴿لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا﴾.

فإن الله سبحانه يرد عليهم:

﴿قل: لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾. (آل عمران آية: ١٥٤).

وهؤلاء الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا:

﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾.

فإن الله سبحانه وتعالى، يأمر رسوله صلوات الله عليه وسلامه أن يرد عليهم قائلاً:

﴿فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ (آل عمران آية: ١٦٨).

أما الذين يفرون أمام أعداء الله، فهؤلاء:

﴿إنما استذلهم الشيطان ببعض ماكسبوا﴾ (آل عمران آية: ١٥٥).

إذن: المؤمن الصادق الإيمان لا يعرف الجبن، ولا يستذله الشيطان، موسوسًا له بالخوف من غير الله تعالى.

وإذا كان خوف الموت هو الدعامة الأولى فى ذلة الإنسان واسترقاقه. فإن الدعامة الثانية هى هم الرزق..

والناس عادة ينتابهم القلق، ويغمرهم الحرص على أقواتهم، ويلجأ بعضهم إلى وسائل لا تليق بالكرامة الإنسانية بل يصل الأمر بالبعض إلى

مستوى التملق والمداهنة والمراءاة، وبعضهم يصل به الأمر إلى الغش والرشوة والاختلاس، وتستعبد المادة والحصول عليها الإنسان فيصبح لها عبدًا مسترقًا..

ولكن الدين وقد حرر المجتمع من خوف الموت فقد حرره أيضًا من هم الرزق، فالرزق بيد الله..

﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها﴾. (هود آية: ٦).

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن الرزق فى السماء محدد مقسوم، وأقسم سبحانه على أن ذلك حق واقع، لقد أقسم سبحانه لما يعلم من ضعف الطبيعة البشرية وإشفاقها وقلقها بالنسبة لأمر الرزق، يقول سبحانه:

﴿وفى السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾. (الذاريات آية ٢٢-٢٣).

على أن صاحب الثراء العريض الذى يعتمد على ثرائه غير ناظر إلى الله تعالى واهب الرزق والثراء وقد يخسف الله به وبداره الأرض، كما صنع بقارون، أو يطوف ببساتينه ومزارعه طائف منه سبحانه فتصبح خاوية على عروشها كما فعل سبحانه بأصحاب الجنة الذين قص علينا أمرهم فى القرآن الكريم فى سورة القلم.

وما من شك فى أن السعى على الرزق مطلوب، وأن العمل الجاد

الكادح إنما هو من سمات الإسلام، كل ذلك حق، وإذا كان الرزق بيد الله تعالى، وإذا كان العمل مطلوبًا، فإن ما ينهى عنه الإسلام، إنما هو هذه الصورة الجشعة القلقة التى تحاول اقتناص المال من السبل غير المشروعة، أو التى ترى أن عبدًا من عباد الله بيده الرزق إعطاء ومنعًا، وبيده الرزق زيادة ونقصًا، أو أخذًا وتركًا..

والتوحيد إذن علاج للجبن وعلاج للقلق من أجل الرزق..

أخذ سيدنا نوح يدعو إلى التوحيد فى همة لا تفتر، وفى نشاط لا يتوانى أخذ يدعو ليلاً ونهارًا، وأخذ يدعو جهرًا حينما تتيح له الظروف الدعوة الجهرية، ويدعو سرًا حينما يستلزم الأمر الدعوة سرًا.

لم يكن يدع فرصة تمر إلا ويشرح فيها رسالة الله: مبشرًا ونذيرًا، مرغبًا فى ثواب الله وجنته، ومخوفًا من عقابه وعذابه.

«لقد أخذ يشرح لهم قدرته وشمول علمه قائلاً»:

«ألا ترون أنه خلقكم فى بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلق؟ لقد كنتم ترابًا، ثم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم كنتم أجنة، وكنتم فى جميع هذه الأطوار فى رعاية الله، محفوظين بحفظه، محاطين بعنايته. وبعد ذلك كنتم أطفالاً فشبانًا وهكذا. وستعودون إليه من جديد فى أية لحظة شاء، فارجعوا إليه بالتوبة والإنابة والطاعة قبل أن تواجهوه وهو عنكم غير راض».

ثم: ﴿**ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقًا، وجعل القمر فيهن نورًا وجعل الشمس سراجًا**﴾. (نوح آية: ١٥-١٦).

ثم: ألم تروا كيف جعل لكم الأرض بساطًا وجعل لكم فيها مسالك وسبلاً للإقامة والانتفاع.. وفى كل ذلك ما نرى فى خلق الرحمن من تفاوت..

وأخذ سيدنا نوح يعدد نعم الله: منبهًا إلى اليسير منها والعظيم، الظاهر منها والباطن ونعم الله كثيرة لا تحصى.

﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾. (النحل آية: ١٨).

ثم أعلن لهم قانون «الاستغفار» وسيدنا نوح أول من أعلن هذا القانون:

﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفارًا﴾. (نوح آية: ١٠).

هذه هى مقدمة القانون أو قاعدته وأساسه.

فإذا ما كان الاستغفار الخالص النصوح، وإذا ما كان الالتجاء إلى الله بطلب المغفرة فى صدق، كانت النتيجة.

والنتيجة هى:

﴿يرسل السماء عليكم مدرارا﴾. أى ينزل الغيث المحيى لأرضكم الجدباء، والذى يملأ أنهاركم الجارية بالخير والنماء.

﴿ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا﴾. (نوح آية: ١٢).

إن الإمداد بالأموال والبنين - وقد أتى بهما القرآن بصيغة الجمع - مترتب على الاستغفار.

وإن هبة الجنات والأنهار - وقد أتى بهما القرآن بصيغة الجمع أيضًا - مترتبة على الاستغفار.

هذا هو قانون الاستغفار الذى أعلنه سيدنا نوح عليه السلام.

وهذا القانون عام لا يحدده زمن ولا يحدده مكان، فمن التجأ إلى الله فى العصر الحاضر بالاستغفار الخالص النصوح الصادق، فإن الله سبحانه يهيئ له من الظروف مايجعله يعيش فى سعة من الرزق، وفى يسار من المال.. إنه وعد الله الذى أوحاه إلى رسوله نوح ليعلنه للناس ووعد الله لا يتخلف.

ولقد أوضح رسولنا صلى الله عليه وسلم، فيما بعد زاوية مهمة من زوايا قانون الاستغفار وهى عدم وقوع العذاب على المستغفر يقول تعالى:

﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾. (الأنفال آية:٣٣).

إن سيدنا نوحا عليه السلام كان ينبه قومه إلى الظروف والملابسات التى تشير إلى صدقه.

إنه لا يسألهم على دعوته أجرًا.

﴿ياقوم لاأسألكم عليه مالاً إن أجرى إلاعلى الله﴾.(هود آية:٢٩).

إنه إذن لا يطالب مالاً، ولا يدعو بدعوته من أجل النقود.

وإذا ما سأله سائل عن السبب فى قيامه بهذه الدعوة فإنه يقول:

١ - أبلغكم رسالات ربى.

٢ - وأنصح لكم.

٣ - وأهديكم إلى ما أعلمه عن الله وذلك لأنى: أعلم من الله مالا تعلمون وهل من العجيب أن يأتيكم ذكر من ربكم فيه لكم هدى ونور على لسان رجل منكم من أجل أن ينذركم، ومن أجل أن تتقوا ، ومن أجل أن يرحمكم الله؟

إن الإنذار يقود عادة ذوى النفوس الخيرة إلى التقوى، والتقوى سبب فى رحمة الله، فهل من العجيب أن يرسل الله لكم - وهو أرحم الراحمين - من يقودكم بإنذاره إلى رحمة الله؟

كان هذا هو منطق نوح عليه السلام، ولقد استجاب له بعض الأشخاص من قومه وكانوا من عامة الناس وضعفائهم.

إن عامة الناس وضعفاءهم دائما هم أتباع الرسل فى مبدأ أمرهم، وقد كانوا أتباع محمد صلى الله عليه وسلم فى مبدأ أمره، ولقد سأل هرقل أباسفيان عن أمر سيدنا محمد فقال له:

أأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم.؟

فقال أبو سفيان: ضعفاؤهم.

فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

ولا يقصد بعامة الناس وضعفائهم إلا هؤلاء الذين ليسوا من أصحاب الثروات الطائلة والجاه العريض والنفوذ والواسع. وتعليل هذه الظاهرة هو أن أشراف الناس على حد تعبير هرقل لهم مصالح ومنافع وأغراض شخصية تحول بينهم وبين اتباع الحق. فمكانتهم وثروتهم تتيح لهم الجرى وراء الشهوات فى إسراف، والدين لا يبيح من ذلك إلا الحلال الطيب، ومكانتهم تتيح لهم التعالى واستعباد الضعفاء واستغلال النفوذ. والدين لا يسمح بذلك ولا يقيم وزنًا إلا للتقوى:

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

أما الضعفاء فقد خلصت نفوسهم من ذلك كله فكانت أقرب إلى اتباع الحق، وكانت مهيأة للاستجابة فى سهولة ويسر، لا تصرفها عن ذلك شهوة، ولا يمنعها من ذلك مصلحة.

وشىء آخر له وزنه يكثر فى محيط الأثرياء، ولا يكاد يوجد عند ذوى المكانة المتواضعة وذلك هو الكبر، الكبر الذى بسببه طرد إبليس من الجنة، الكبر الذى يمنع ذوى الشرف أن يتابعوا شخصًا من بينهم يرون أن لا ميزة له عليهم، فيصبحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين، وهذا هو ما عبر عنه نوح بقوله:

٠ ﴿ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله، فعلى الله توكلت﴾. (يونس آية:٧١).

لقد استجاب لنوح قليل من الضعفاء فماذا كان موقف السادة والأشراف؟

اتبع نوحًا بعض ضعفاء قومه وكانوا قلة، وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله:

﴿وما آمن معه إلا قليل﴾. (هود آية: ٤٠).

كان هذا القليل هو الذى أمكنه أن يستخلص نفسه من ترغيب السادة الكبراء ومن إرهابهم، إنهم الذين لم تؤثر فيهم رغبة أو رهبة، لقد خلصوا للحق.

على أن هذا القليل من المؤمنين كان من أسباب النفور الذى أبداه الملأ من قوم نوح.

وكلمة «الملأ» تعبير قرآنى يستعمله القرآن كثيرًا فى قصة نوح، ويريد به «السادة الكبراء» على حد شرح الإمام ابن كثير للكلمة.

لقد كان الملأ يقول لنوح كلما دعاهم:

١ - ما نراك إلا بشرًا مثلنا.

٢ - وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى (أى اتبعوك

منذ اللحظة الأولى للدعوة دون تفكير).

٣ - وما نرى لكم علينا من فضل.

ولقد غفل هؤلاء أو تغافلوا عن أن الرسل ما كانت - ولايتأتى أن تكون - إلا بشرًا من البشر، وما كان اتباعهم إلا من تمحض للخير، وكل من تمحض للخير فإنه فى الذروة من الفضل مهما كانت مكانته من الثراء وألح الملأ على نوح أن يطرد هؤلاء الذين اتبعوه فقال فى ثقة ويقين:

﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾.

استمر نوح فى دعوته وجدله مع قومه ، لايفتر ولا يلين حتى استخلص من بينهم كل من شاء الله له الهداية وحينئذ أوحى الله إليه:

﴿لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾. (هود آية: ٣٦).

ولما علم نوح بذلك نادى ربه:

﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا﴾. (نوح آية: ٢٦).

ثم علل سبب هذا الدعاء قائلا:

﴿إنك إن تذرهم (أى تتركهم) يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرًا كفارًا﴾ (نوح آية: ٢٧).

واستجاب الله إلى دعاء نوح ولكنه لم يهلك الكافرين فور الدعاء، وإنما

أمر نوحا بأن يصنع سفينة وأخبره أنه سيغرق أعداءه.

وسنة الله سبحانه أن يرسل من يبشر بالهدى وينذر الطغاة بالعذاب فإذا كانت الاستجابة: كانت رحمة الله، وكان فضله، أما إذا كان الإباء والتمرد على الأوامر الإلهية فإن الله يهلك الظالمين. تلك سنته؛ أجراها فى قوم نوح وفى قوم هود، وفى قوم صالح وفى غيرهم. ولقد قص الله سبحانه فى القرآن أخبار هؤلاء سواء كانوا أفرادًا مثل قارون، أو كانوا أممًا مثل عاد وثمود. والله سبحانه يقول لموسى عليه السلام:

﴿وذكرهم بأيام الله﴾.

وأيام الله: إنما هى التاريخ وما فيه من عبر وعظات.

وجاء يوم لم ير فيه الملأ الذين كفروا من قوم نوح، على عادتهم كل صباح، وعلى عادتهم على مدار الأيام فى سنوات عدة.. لم يروا نوحاً يجوس بينهم على عادته مبشرًا ومنذرًا وافتقدوه، وبحثوا عنه ملحين وكأن مجتمعهم لا يستقيم أمره بغير وجود نوح بينهم، يسخرون به، ويهزأون منه، ومن أتباعه، وكأن ذلك قد صار عادة لا غنى لهم عنها.

وفى خاتمة المطاف، وجدوه، فوقع منظره منهم موقع الغرابة العظمى فى أول الأمر.

لقد وجدوه مع بعض أتباعه يعالجون قطعًا من أخشاب الأشجار ويصنعون ما يصنع النجارون نشرًا وقطعًا وتسوية وتهذيبًا وتشذيبًا.

وعقدت الدهشة ألسنتهم، ثم أخذوا يتساءلون عن الأسباب والعلل وعن الأهداف والنتائج. ولم يخف نوح شيئًا من أمره، وإنما أعلن فى صراحة، أنه يبنى سفينة لينجو فيها هو وأتباعه من الغرق حينما يعم الفيضان الأرض، وحينما يهلك الله الكافرين.

كان الجو صحوًا وكانت السماء صافية، ولم تكن العادة قد جرت فى هذه المنطقة بفيضانات جارفة أو سيول مدمرة، فكانت النفوس مطمئنة من هذه الجهة وكانت القلوب قاسية لا تؤمن بالمعجزات ولا خوارق العادات.

فأخذت الابتسامات تدور على الشفاه وأخذت السخرية تجرى على الألسنة، ووجد المشركون مجالاً جديدا للتندر والسخرية، فواجههم نوح مؤكدًا:

﴿ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾. (هود آية: ٣٨ - ٣٩).

وأخذ نوح يعمل فى بناء السفينة فى هدوء وطمأنينة غير متعجل وغير متباطئ حتى أتمها.

فكيف كانت السفينة طولاً وعرضًا وارتفاعًا؟.

اتفق المتحدثون عن كيفية السفينة على ارتفاعها وأنه كان ثلاثين ذراعًا، وأنها كانت ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع، وقد تخصصت كل

طبقة فيها لنوع معين، فالطبقة السفلى للحيوانات، والطبقة الوسطى لنوح وأهله ومن آمن معه، والطبقة العليا للطيور وكان بابها فى عرضها. وكانت مغطاة من أعلاها.

وإذا كانوا قد اتفقوا على ذلك فإنهم اختلفوا فى نوع الخشب واختلفوا فى طول السفينة وفى عرضها. أما التوراة فإنها حددت الخشب بأنه من خشب الصنوبر، وحددت التوراة أيضًا طول السفينة بأنه ثلاثمائة ذراع، وحددت عرضها بأنه خمسون ذراعًا وقد قال بذلك بعض علماء المسلمين وليس فى نصوص الدين الإسلامى الصحيحة ما يتعارض مع ذلك، وبالرغم من هذا فقد قال مثلًا الحسن البصرى:

إن طولها كان ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة ذراع.

وقال ابن عباس غير ذلك. ولايسند واحد منهم رأيه إلى نص من قرآن أو سنة.

ومما ينبغى ذكره فى هذا المقام أن البعثات العلمية أوربية وأمريكية لا تزال توالى البحث عن السفينة ولم تنته بعد إلى نتيجة مرضية.

* * *

أمر الله نوحًا أن يصنع الفلك حسب إرشاد الله وتعاليمه، لينجو فيه ومن آمن معه، وعرفه أنه سيهلك الملأ من قومه غرقًا.

فلما أتم نوح بناء السفينة جاء أمر الله إلى الأرض أن تتفجر بالماء،

والى السماء أن ترسل بالماء هطالاً، وأمر نوحًا أن يحمل فى سفينته من كل أنواع الحيوانات والطيور ، ذكرًا وانثى، وأن يستوى هو ومن معه فى السفينة، وأن يعلن بأن الحمد التام الكامل إنما هو لله الذى نجاه ومن معه من القوم الظالمين.

وما أن بدأت السفينة تتحرك وتحملها المياه، ونوح فى غمرة من الرضا والحمد، حتى حدث أمر لم يكن يتوقعه نوح ولم يكن له على بال.

لقد رأى أحد أبنائه على مرتفع توشك المياه أن تغمره فصرخ فيه مناديًا له :

﴿يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾

ولم يكن ابنه هذا قد آمن به، ونداء نوح له إنما كان نداء للإيمان أولا وبالذات.

وما من شك فى أن كلمة «يا بنى» فيها الشفقة، وفيها العطف، ولكن الشفقة والعطف لم يبلغا بنوح عليه السلام إلى أن يتسامح مع ابنه فى الركوب، ولو لم يؤمن، كلا، إنه يقول له فى لغة مفهومة:

الحق بالمؤمنين فى إيمانهم لتنجو فى سفينتهم ولا تمكث مع الكافرين فى كفرهم فيحيق بك سوء خاتمتهم. ولو أراد نوح أن يأخذ ابنه رغمًا عنه فى السفينة لفعل، إنه لو أراد أن يطرحه أرضًا ويوثقه كتافًا فيلقيه فى السفينة لأمكنه ذلك، ولكن الأمر لم يكن أمر نجاة جثمانية، وإنما كان أمر إيمان.

ولم يكن لنوح على قلب ابنه من سبيل.

ولم يستجب الابن لأبيه، ولكنه أبى وعاند وقال:

﴿سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء﴾.

فقال له الأب فى شفقة متزايدة:

﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾

أى أنه لا رحمة اليوم، ولا عصمة من أمر الله إلا للمؤمنين، وأنه سيعم الغرق جميع الكافرين، ومع هذا البيان استمر الابن معاندًا متكبرًا.

ولم يفقد نوح الأمل فى هداية ابنه وفى نجاته بسبب هذه الهداية، فاتجه إلى الله راجيًا متضرعًا مستعطفًا قائلا:

﴿رب إن ابنى من أهلى، وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين﴾.

وقول نوح عليه السلام: ﴿وإن وعدك الحق﴾، إنما هو إشارة إلى وعد الله له بنجاته ونجاة أهله معه، وفهم نوح أن أهله: إنما هم أهله من النسب، وعزب عنه فى تلك الساعة، وهو يرى ابنه يوشك على الغرق، أن الله استثنى من أهله: ﴿من سبق عليه القول﴾.

أى من لا يهتد بنور الله فكان فى سابق علم الله من الهالكين المغرقين.

وعزب عنه شىء آخر هو أن أهل الرسول إنما هم المهتدون بهديه أما من لم يؤمن، ولم يتبع هدى الرسول، فإنه ليس من أهله. ولقد نبهه الله

سبحانه إلى ذلك فقال له:

﴿إنه ليس من أهلك﴾.

علل الله سبحانه ذلك بقوله:

﴿إنه عمل غير صالح﴾.

إن الإيمان فى الجو الدينى رابطة أقوى من رابطة النسب.

* * *

عندما أمر الله سيدنا نوحًا أن يبنى سفينة ويأخذ فيها من آمن معه نفذ نوح ما أمره به الله سبحانه وتعالى. وسارت السفينة فى موج كالجبال، وحال الموج بين نوح وابنه الذى لم يؤمن برسالته وأبى أن يركب معه.. وغرق الابن مع الغارقين.

وكما غرق الابن فقد غرقت الزوجة، ولقد ضرب الله بها المثل للذين كفروا هى وامرأة لوط مذكرًا الكفار بأنهما حين خانتا زوجيهما فإن الزوجين نوحًا ولوطًا عليهما السلام - لم يغنيا عنهما من الله شيئًا فقد أخذهما الله بذنبهما، وقيل لهما ادخلا النار مع الداخلين.

وقد يتساءل إنسان عن خيانة امرأة نوح ماذا كانت؟ والأمر فى هذا سهل: إن النظام الإلهى فى الزواج أن تكون الزوجة سكنًا لزوجها، وأن تكون مودة ورحمة، فإذا كانت سببًا فى الضيق والشر والسوء فإنها تكون قد خانت أى انحرفت عن الوضع الإلهى الخاص بالزواج.

هذه الخيانة قد يكون أمرها هينًا فى الوضع العام للزوج، حين يكون الزوج من الأفراد العاديين، ولكنها تبلغ الذروة فى السوء حين يكون الزوج من النبيين المرسلين، لأنها إذ ذاك تكون خيانة فى حق الرسالة نفسها التى كلف الرسول بنشرها، فتكون الخيانة كفرًا، وقد كانت خيانة امرأة نوح كفرًا به وبرسالته، لقد كذبته وكذبت برسالته.

ولقد سئل ابن عباس رضى الله عنه عن خيانة امرأة نوح ما هى؟ فقال كانت تقول زوجى مجنون.. ولقد كان مصيرها الغرق.

ولم يغن نوح عن ابنه، رغم حبه له، شيئًا.

ولم يغن نوح عن امرأته - رغم صلتها به - شيئًا..

ولقد أبان الله سبحانه عن ذلك لأمور عدة:

الأمر الأول: أن العدالة الإلهية تأخذ المجرم بجريته وتعاقب الآثم بإثمه، لا تنظر فى ذلك إلا إلى العدل فى ذاته، ولقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم معبرًا عن الوضع الصادق:

والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

وما ينبغى أن تكون القرابة أو الصلة أو الشفاعة سببًا فى اهمال الآثم، أو سبيلا إلى عدم الضرب على يد المجرم.

الأمر الثانى: أن الروابط فى المجتمع يجب أن تقوم على الحق والخير

والفضيلة، أو بتعبير آخر على الإيمان، فما كان الإيمان فى يوم من الأيام إلا الحق والخير والفضيلة، لا على الأنساب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول عن سلمان الفارسى:

سلمان منا آل البيت.

وما كان سلمان رضى الله عنه ذا صلة نسبية بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه من آل البيت بخلقه ودينه، بخيريته وفضائله.

وعلى العكس من ذلك أبو لهب: فإنه مع صلته بالرسول صلى الله عليه وسلم فإن القرآن يقول عنه:

﴿سيصلى نارًا ذات لهب﴾.

والدين فى أكثر من مناسبة يبين أن العبرة عند الله إنما هى التقوى:

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

سارت السفينة فى موج كالجبال، ولكنها سارت باسم الله مجريها ومرساها: أى أن عناية الله رافقتها فى سيرها فلم يحدث لها مايسىء.

ولقد كانت عناية الله ورعايته ترافق نوحًا فى كل خطواته: ففى صنع السفينة يقول الله تعالى: ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾.

أى على مرأى منا وبارشادنا فى كل الخطوات، فعناية الله كانت ترافقه فى بناء السفينة.

ويقول الله عن سير السفينة:

﴿تجرى بأعيننا﴾.

أى أن سيرها كان فى مجال الرعاية الإلهية والملاحظة الربانية، ولم تترك السفينة للعواصف تلعب بها ولا للأعاصير تدمرها.

هذه الرعاية والعناية كان يرافقها ويقابلها من نوح عليه السلام وصفان ذكرهما الله سبحانه حيث يقول عنه:

﴿إنه كان عبدًا شكورًا﴾.

لقد حقق نوح عليه السلام العبودية لله سبحانه. والعبودية لله سبحانه أشرف ما يوصف به الإنسان بالنسبة لله، وإن من حققها فقد حقق الذى من أجله خلق الله الإنسان والجان، يقول سبحانه:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

أى ليتحققوا بالعبودية، فإذا ما تحققوا بالعبودية كفاهم الله كل ما أهمهم. أترى إلى التعبير القرآنى كيف استعمل كلمة «عبد» وقال: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾.

لقد تحقق نوح عليه السلام بالعبودية لله، ومن أجمل مظاهر العبودية الشكر لله سبحانه وتعالى.

ولم يكن نوح عليه السلام: عبدًا شاكرًا وإنما كان عبدًا شكورًا، وذلك

أن شكورًا أبلغ فى الشكر من شاكر، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وقليل من عبادى الشكور﴾.

ولقد كان من مظاهر شكره لله سبحانه وتعالى كثرة صيامه.

روى ابن ماجه بسنده عن عبد الله بن عمرو قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر وأفطر الدهر.

ومعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن إبراهيم عليه السلام، صام الدهر وأفطر الدهر: أنه ما دامت الحسنة بعشر أمثالها فصوم يوم إنما هو بمثابة صوم عشرة أيام، وصوم ثلاثة أيام من كل شهر إذن إنما بمثابة صوم كل شهر، فكأن إبراهيم عليه السلام قد صام الدهر كله، ومع ذلك فإنه لم يصم من كل شهر إلا ثلاثة أيام وهى أيام قليلة فكأنه قد أفطر الدهر كله.

تثير قصة سفينة سيدنا نوح عديدًا من التساؤلات: كم يومًا سارت السفينة؟ أين موقع الجودى الذى رست عليه، هل شمل الطوفان الأرض جميعها؟ هل كان سكان الأرض بعد الطوفان كلهم مؤمنين».

عندما جاء النداء الإلهى للأرض أن تبتلع ماءها، وللسماء أن تكف عن

إرسال المطر، أخذ الماء فى النقصان، واستوت السفينة على الجودى، والجودى - كما يقول صاحب القاموس - «جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ويسمى فى التوراة أراراط. ا هـ».

أما عن عدد الأيام التى سارتها السفينة فعلم ذلك عند الله، وكل قول فيه إنما هو ضرب من التخمين..

فإذا عدنا للتساؤل عن الطوفان، هل كان عامًّا شمل المعمورة كلها أو كان خاصًّا بالإقليم الذى كان به نوح؟ نجد أن الإمام محمد عبده يعرض لهذا الموضوع ويبين أن أهل الكتاب وعلماء الأمة الإسلامية يجمعون على أن الطوفان كان عاما لكل الأرض وقد وافقهم على ذلك كثير من أهل النظر، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة فى أعالى الجبال، لأن هذه الأشياء مما لا يتكون إلا فى البحر فظهورها فى رؤوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض.

ولكن بعض أهل النظر من المتأخرين يرى مخالفة هذا الرأى، ويقول إن الطوفان لم يكن عاما، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها..

وأيا كان الأمر فإنه عندما رست السفينة قيل:

﴿يا نوح اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾

ونزل نوح ومن معه فى رعاية الله وعنايته، وقد طهرت الأرض من الشرك، ومن الأوثان والأصنام، ومن الشر على جميع أنواعه.

نزلوا وليس على وجه الأرض كافر، وأخذوا يعملون ويعبدون..

ولقد ذكر عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديث صحيح معناه:

أن نبى الله نوح لما حضرته الوفاة قال لابنه:

إنى قاص عليك وصية: آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين..

آمرك بلا إلٰه إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت فى كفة، ووضعت لا إلٰه إلا الله فى كفة، رجحت بهن لا إلٰه إلا الله..

وآمرك بسبحان الله وبحمده، فإن بها صلات كل شىء وبها يرزق الخلق.

وأنهاك عن الشرك، والكِبْر.

قيل يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكِبْر؟ هل هو أن يكون لاحدنا نعلان حسنان وشراكان حسنان؟

فقال: لا..

قيل: أهو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟

قال: لا..

قيل: أهو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟

قال: لا..

قيل: هل هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟

قال: لا..

قيل: يا رسول الله: فما الكِبْر؟

قال سفه الحق وغمْط الناس، أى التكذيب بالحق والتعالى على الناس.

مما تقدم ومن حديث النبى عليه الصلاة والسلام عن نوح عليه السلام يتبين أن الله سبحانه طهّر الأرض من الكفر بالطوفان وعاد بنو البشر إلى التوحيد.

* * *

عندما جاء الطوفان على أيام سيدنا نوح، طهّر الله العالم الأرضى مادة وروحًا. طهره مادة بهذا الطوفان الذى كان فيه الموج كالجبال، وطهره روحًا بأن دمر الشرك بالغرق الذى لم يترك على ظهر البسيطة كافرًا بالله، وعاش هذا الجيل من المؤمنين مع سيدنا نوح فى أمن روحى وفى نعيم مادى.

ولقد كانت الثقة متبادلة.. وكان التعاون تامًّا، وكان الإيمان مسيطرًا وكانت تعاليم السماء مطاعة والزمن يمر فى رخاء.

- ولكن كم استمرت هذه الحياة السعيدة. لا شك أنها استمرت بطبيعة الحال مدة حياة نوح عليه السلام. استمرت طيلة حياة الجيل الأول.

- ولكن الناس هم الناس أينما كانوا، فما أن نشأ الفتيان والفتيات حتى بدأ التنافس والتنازع من أجل المال والثراء. ومن أجل الجمال والاستمتاع به.

ومن أجل الجاه والنفوذ والسيطرة والاستعلاء، فالتحكم فى النزعات والأهواء ليس من السهولة بمكان، والتسامى بالغرائز صفة لا ينالها إلا أولو العزم.

وما من شك فى أن الانحراف لم ينشأ طفرة، بل نشأ بصورة تغلغلت على مر الزمن، وأخذ طريقين متلازمين متفاعلين يزيد كل منهما بزيادة الآخر وهما طريق العقيدة وطريق الأخلاق..

- ولا ريب أن أساس الانحراف إنما هو العقيدة، ومن أجل ذلك كان إصلاح العقيدة إصلاحًا للأخلاق وكان فساد العقيدة فسادًا للأخلاق.

- بدأ الانحراف فى العقيدة متجهًا نحو الشرك.

- بدأ الانحراف فى الأخلاق متجهًا نحو الكبرياء والتفاخر والترف الفاسد.

- وتركز هذا الانحراف أقوى ما يكون فى إقليم عربى سماه القرآن بالأحقاف فبلغ فيه قمته.

- كان هذا الإقليم فى اليمن بين عمان وحضر موت، وكان أرضًا

وودياناً مطلة علىٰ البحر تسمى الشحر.. وقد سمى هذا الوادى أيضا باسم له مغزاه وهو اسم مغيث.. فقد كان غيثاً بالخير والنعم.

- كان يسكن هذا الوادى قبيلة تسمى عاد، وقد منحها الله من نعمه الكثير، أما من ناحية إقليمهم فقد هيأ الله لهم واديًا أمدهم فيه بأنعام وبنين، ومتّعهم فيه بجنات وعيون، وزادهم الله فى الخلق بسطة، فجعلهم ضخام الأجسام أقوياء، وكانوا من القوة بحيث قالوا يومًا ما فى خيلاء وفخر:

﴿من أشد منا قوة﴾.

- ولما كان الله قد وفر لهم كل أسباب الحياة الهنيئة الناعمة وعبر عن ذلك سبحانه بقوله:

﴿وأترفناهم فى الحياة الدنيا﴾.

كان من المنتظر أن يحمدوا الله ويشكروه على هذه النعم الظاهرة والباطنة.

ولكن صدق الله العظيم إذ يقول:

﴿إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى﴾.

أى أن الإنسان إذا رأى نفسه فى غنى ونعيم طغى وبغى. وقد كان هذا شأن عاد.